قصة قصيرة بقلم غسان كنفاني من مجموعة "أرض البرتقال الحزين"

الأخضر و الأحمر

« لم يكن عنده مقدرة شم الموت كما كانت عنده قدرة احساس الحياة .. وقالوا له مره ان هذا خطا مهلك ... »

« ذلك انه في المكان الذي سقط فوقه الجبين ، في الحفرة المدوره التي صنعتها السقطه ، ولد طفل صغير ... « في عين كل رجل - يقتل ظلما - يوجد طفل يولد في نفس لحظة الموت » ...

-١-

• النزال •

لم يكن يظن لحظة واحده ، انه قريب من الموت قرب انفه من الهواء .. لم يكن يظن ذلك قط .. كل الطريق كانت تعبق بحياة بكر كانها خلفت لتوها ، كان الله صنعها الان فحسب لتنشقها ، ولتركها تغسل صدره مثل شلال من الرش .. اثار يبرعم في جبينه وكفيه واضلاعه ، وشمه فتنهال الى صدره دوامات لا تنضب ولا تنثني .. كيف تريده ان يظن ، لحظة واحده ، انه قريب من الموت قرب الهواء الى انفه ؟ ولكنه كان قريبا منه ، كان قريبا منه دون ان يحسه او يشمه .. لم يكن عنده مقدره شم الموت كما كانت عنده قدرة احساس الحياه .. وقالوا له مرة ان هذا خطأ مهلك ، وان الحياه لا قيمه لها قط ان لم تكن ، دائما ، واقفا قبالة الموت .. ولكنه لم يبال .. بينه وبين النظرات المنعمرة ما بين اسار والكفن .. بينه وبين الموت ما بين تراب اسار والجفاف .. كان ماض الى الزوج والولد وجدران اللحم والحب التي كانت دائما هناك ، في اسار وفي غير اسار .. التعريشة الخماسية التي تتسلق باصابع ثابتة جدار الدار الخشن فتصبغه بكل خضرة البعث وتجعل منه شجره ، فرع شجرة عريض يحضن الزوج والولد وجدران اللحم والحب .. بينه وبين الموت ما بين الموت والحب، لم يكن يظن لحظة واحدة ، انه بينه وبين الزوج والولد وجدران اللحم والحب لحظة موت واحده واقفة عند المنعطف ، مشهرة اظافرها العشره كانصال مشرعة بالانتظار .. لحظة موت واحده ولكنها حاسمة ونهائية .. ولم يكن يعرف ، هو ، انها واقفة هناك ، بالانتظار ، كان بينه وبينها بقف اسار ..

الا انه كان لا بد له ان يمر من ذلك المنعطف ، ولدى لحظة واحدة فقط احس رجفة الترقب الرهيب ، فباطأ خطواته هنيهة واصاخ السمع ، وحينما لمعت امام بصره الاظافر المشرعة لم يفكر الا بالنزال ..

قد يكون ذلك حدث منذ زمن سحيق .. سحيق كازل بلا قرار .. سحيق كالعدم او بذرة البعث ، وراء مدى التذكر ، فوق مستوى التخمين ، ولكنه الان ، ودائما ، في صلب الاحساس ينز الدم كل لحظة ، ويخفق مرتجا مثل سمكة هلامية عل الارتجاج يرجعها الى الموج الذي رماها فوق رمل الشاطىء ..

النزال ! ما زال يذكر مقاطع مقطعه منه ، ممزوجه بالوعي وباللاوعي : لقد انهالت الاظافر عليه فاعملت به تمزيقا ، تجمعت حواليه فافترست جلده وانغرزت في خاصرتيه ورئتيه فاخذ يلهث دماءه ، كلما استدار سدت عليه الاظافر منافذ الحياه ومنافذ اسار ، وسالت كالسيوف امام عينيه وانفه فمنعت عنه الرؤيا ومنعت عنه الهواء .. ومثل من على وشك ان يسقط او ينام ، تعرف الى بعض تلك الاظافر، ولكن حنجرته كانت قد تجرحت وسدتها الدماء فحشرج : حتى انت ؟ وفي لحظه بالغه احس دبيب الموت . الا ان اسار كان ضخما وكان كبيرا ، وكان قد صبغ الطريق بالخضره .. احس بالاصابع تغوص الى قلبه فتعره ، وانهالت خيوط الدم فوق صدره زاحفة مثل افاع حمراء رفيعه وتجمعت عند قدميه وسالت جدولا قانيا في الطريق ..

انسحبت الاظافر فبقي جامدا واقفا لمدى لحظات كالدهر .. لقد احس بالحياة تتسرب من جسده وسالت احساسه بالموت صلبا وكبيرا ولكنه لم يشأ ان يقع فتجالد واضعا كفه فوق وجهه .. الا ان الموت كان قد وصل ، وسمعه يمشي فتحقق خطواته بالاناشيد المعده .. لقد اتى من تحت ، تسلق ساقيه فاحس بالعجز ، ولدى لحظه واحدة عرف ان كل شيء قد انتهى ، وان بينه وبين الزوج والولد وجدران الحب واللحم ما بين انفه والهواء .. بينه وبين اسار ما بين حضره اسار وجدول الدم .. سقط ، حفرت ركبتاه في الارض حفرتين مدورتين .. بقي راكعا وكفيه فوق وجهه ، لحظة واحدة فحسب ، اسار يتراجع ، جدول الدم يفتش عن مصب ، وصل الموت باناشيده الى خاصرتيه فوقع ، حفر جبينه حفرة مدورة في التراب .. صمت الموت : الشهيد يصلي ..

-٢-

• جدول الدم •

في نفس تلك اللحظه حدث شيء لم يلحظه اي انسان من بين اولئك الذين تكوموا حول الموت ينظرون اليه بفضول قبل ان تصل سياره الصحه فتحمل الجسد الى القبر او الى المحرقه .. ذلك انه في المكان الذي سقط فوقه الجبين ، في الحفرة المدورة التي صنعتها السقطه ، ولد طفل صغير ..

ليس يدري احد بالضبط كيف حدث ذلك الان ، بوسع الكثيرين ان يقولوا بان الطفل الصغير انبثق من الجبين بعد ان انضجه التراب الساخن الرطب .. بوسع غيرهم ان يقولوا بان الطفل كان موجودا في التراب اصلا فايقظته السقطه .. ولكن الحقيقه الاقرب للتصديق ان الطفل انبثق من العينين ، لقطه العينان مثلما تلفظ الرحم المترع الوليد .. وان في عين كل رجل - يقتل ظلما - يوجد طفل يولد في نفس لحظه الموت .. الا انه سرعان ما يموت هو الاخر لان مسافه السقوط من عين الرجل الى الارض مسافة طويلة لا يحتملها تنبه الضئيله .. على اي حال لقد عاش ذلك الطفل لانه غاص في الرمل ، وعاش هنالك دون ان تلحظه انسان قدوسه قاصدا او غير قاصد ..

كان مخلوقا ضئيلا له ملامح رجل .. كان وجهه حاد الملامح حتى ليخيل للمرء ، لو يراه ، بانه منحوت من حجاره صلده بازميل خشن ، كان فمه مطبقا باحكام فهو لا يتكلم ، وكانت جفونه ملتصقه ببعضها فهو لا يرى ، وكان ضئيلا مثل عقده الاصبع ، اسود اللون قاتما كالليل ، الا ان قلبه كان شديد البياض ، كان الشيء الابيض الوحيد في الجسد الضئيل ، وكان بوسع الحدق الى الصدر الاسود ان يراه ينبض، كمنقار عصفور قزم ؛ داخل تلك الضلوع المتشابكه السوداء .. كانت تشبه الصغيرة متينة ومتناسقه وبديعة ، كفاه فيهما عشره اصابع كل اصبع له ثلاث عقد ، تماما مثل الانسان ، وكانت عضلات صدره تنغرس فوق ضلوعه كالصدف الاسود ، وكانت له احلامه وآماله واوجاعه ومطامحه وذكرياته ، تماما مثل سائر البشر .. كل الفرق هو انه كان صغيرا جدا ، وكانت عيناه مغلقين وشفتاه ملتصقتين .. ولكنه كان يتنفس ، وكانت اكوام التراب المتراكمة فوقه وحوله غير قادره على قتله .

لم يلحظ ولادته اي انسان ، ولم ينتبه اليه احد حين غاص في الرمل الرطب عميقا عميقا .. ولما حمل الحفارون جسد الميت الى المقبرة او المحرقه تعرق الناس ، فخفت من فوق كاهل الاسود وطأة اقدام الجموع .. عندها فقط اكتشف انه وحيد وتائه ، الا انه لم يستطع ان يحول بين ساقيه وبين رغبة المسير ، فانطلق الى الامام شاقا باظافره طريقه الصغير ، كالدوده ، داخل تلك الرمال المتراكمه حواليه وفوقه دون توقف ودون تعب ، ساعة وراء ساعه ، ويوما اثر يوم على غير هدى وعلى غير ضياء ، ياكل رملا ويتنفس رملا ويشرب عصير الرمل ، لا يلتفت الى الوراء ولا يتطلع الى فوق ولا يحول راسه الى الجوانب .. وكان يحس فيما هو يشق طريقه المظلم ، اقدام الناس فوق رأسه تروح وتجيء، فيشعر بانه لو جرب ان يصعد الى فوق اذن لديس كما تداس الخنافس .. اصوات اقدام ، هدير انهار ، هرج امواج ، كل لحظة كل ساعة كل يوم .. ووراءه كان يجري جدول الدم كانه ملاحقه ، كانه قدره ..

-٣-

• الموت للند .. •

مرت سنوات وانت تحت الاقدام ايها الاسود الصغير ! تراك انبثقت من حدقة ابيك اعمى ابكم ام ان التراب ملا فمك وانزرع في عينيك ؟ بينك وبين جدران اللحم والحب سنوات ! أهو قدرك ، ايها الاسود الصغير ، ان تعيش في التراب وتتنفس في الظلام وتلاحق بجدول الدم ؟ اهو قدرك ، ايها الاسود الصغير ان تداس كل عمرك وان يطأ الناس ، كل الناس ، فوق كاهلك ، وان تاكل ترابا وتتنفس ترابا وتشرب عصير التراب ؟

ايها العملاق الممسوخ ، يا عين ابيك المذبوح بالاظافر ، لماذا لا تموت ؟ لماذا لا تتوقف لحظة واحدة تحت تلك الاكوام من الاتربة فينطفىء الضوء الابيض المعلق في صدرك ؟ اترى لا تدري بان حياتك مرهونه بذلك التراكض الوحشي المذعور ؟ اتراك تعرف بانك لو توقفت لاغرقك مد الدم ولانتهيت ؟ ايها الاسود الصغير التعس ايها الاسود الصغير التعس .. لماذا لا تموت ؟

★ ★ ★

الا ان الولد الضئيل لم يكن يبالي بكل تلك الهواجس التي كانت تلح على رأسه وكان يواصل سعيه المسعور مستشعرا ذلك الهدير الشيطاني لنهر الدم وراءه ، متلمسا طريقه بحذق الاعمى وصلابة الحجر .. في غمره تلك السنين المديدة صار بوسع اظافره ان تخدش الحديد اذا ما اعترض الانطلاق المصمم .. ولم تعد الهواجس الرماديه قادره على ايقاف الحماس الملتهب دفعه واحـدة .

بعد كل تلك السنين التي مرت على ولادته لم يحس به احد ، ولذلك لم يعط اسما ، لم يضمه احد في حسابه ليتعرف عليه باسم او يلعب .. لم يشعر وجوده احد .. صحيح ؟ كلا ! واحد فقط ، الموت الذي ذبح اباه باظافره عند منعطف اسار قبل سنوات وسنوات ، كان يعلم ان الوليد الاسود موجود في مكان ما تحت تلك الارض فحشد الاقدام لتدوس منافذ الخروج .. لم يكن يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك ..

★ ★ ★

كبرت ايها الاسود الصغير ! صار عمرك اربع عشرة سنة ، اربعة عشر اسار مر فوقك ، جدول الدم سعى اربعه عشر ربيعا ايها الاسود الصغير وانت ماض كالدود تبحث عن ماذا ؟ اي خلاص ترتجي ؟ اين ستنتهي تلك الطريق ايها التعس .. ألم تفكر قط بان تنتهي ، بان تريح الاقدام من عناء البحث عنك لتدوسك ؟ عن اية نهاية تبحث ؟ عن اية نهايه ؟ ما زال القنديل الابيض ينوس في صدرك .. حتى متى ؟ ابت صغير على النزال .. والاظافر العشره ما زالت مشرعه لامعه كالانصال ترقب نزوعك لتجفف بجلدك الاسود جدول الدم ..

ابت صغير على نزال اعدائك ايها الممسخ .. يا عين ابيك القتيل فوق ربيع اسار ايها الذي تعيش تحت اكداس الاقدام .. اكبر .. اكبر ..

لماذا لا تكون ندا قبل ان تموت ؟ من .. من .. لقد نزفت عرقك واذبت عضلك دون ان تطفىء تلك النقطه البيضاء المعلقه في صدرك كالقنديل .. هب ! ماذا بقي منك ؟ تقول الكثير ؟ تطفئ ؟ انفك شعاك عن اسنانك ؟ لقد نزفت من العرق ما تصنع الف رجل كبير .. يا عقده الاصبع ! ايها الممسخ ، يا عين ابيك الشهيد .. لا تمت قبل ان تكون ندا .. لا تمت ■

غسان كنفاني
بيروت ١٩٦٢